تحدث عنها الدين الحنيف وحصنها بمجموعة من الضوابط

آداب الحوار واختلاف الرأي .. في الإسلام

إن ضوابط الحوار والنقد في الإسلام من أهم ما يمكن أن يكون الباحثون فيه على ذكر حتى يرجعوا إلى تصحيح سلوكهم القولي، ما بين الفينة والأخرى في ضوء هذه الضوابط التي رسم القرآن الكريم معالمها الأساسية، عندما نهى المؤمنين عن ألوان من الشطط في استعمال اللسان والقلم، لافتا إلى خطورة السخرية الجماعية المبنية على عصبية، وإلى السخرية الجنسية بين النساء وإلى خطورة النقد بالظن المحتمل لمختلف التفسيرات مثله في ذلك مثل وضع الألقاب المشينة للأشخاص مع النهي عن التسرع في الحكم على الأشخاص والأحداث قبل التثبت، وبمجرد الظنة، مناديا المؤمن إلى احترام الأعراض والأشخاص في غيابهم، لافتا النظر إلى خطورة شهادة الفاسق التي يجب التثبت من صحتها وعدم تصديق صاحبها بسرعة، داعيا إلى جانب ذلك عند الكتابة إلى الشجاعة في إبداء الحق، وإلى خطورة مسؤولية القلم الذي يجب أن يخضع صاحبه إلى القيام في شهادته بالقسط وفق الواقع، داعيا المجتمع المسلم إلى أن يضمن الحرية في إبداء الرأي لذوي الشهادة باللسان أو القلم.

وقد زادت السنة هذه المعالم بيانا وتفصيلا في نهيه عليه السلام المؤمنين عن الإقدام في النقد والفحش فيه، وعن لعن المسلم وطرده من رحمة الله، وعن همزه بالكلام بكيفية مباشرة؛ أو لمزه بكيفية مبطنة، وعن غمزة بمؤخر عينه سخرية به، وعن نقل شيء عنه على جهة الإفساد.

وعن الحديث في غيابه بما يكره، وعن تقويله ما لم يقل؛ مشددا النكير على أساليب الثرثرة، والخروج عن الحديث الهادف، وعن التفيهق وانفلات الزمام من المتحدث حتى يصدر منه ما لا يقبل من القول؛ محذرا من فلتات اللسان وخطورته في قلب الحق باطلا، والباطل حقا، داعيا إلى التجرد عند إصدار الأحكام؛ محذرا من خطورة الهوى، ووجوب الاعتدال في الحكم وإن دعت الظروف إلى عكس ذلك، مراعيا حق المؤمن والإنسان في أن يخطئ وأن يسامح إذا أخطأ داعيا إلى الموازنة بين محاسن الأشخاص والأحداث ومساوئهم.

وقد سار السلف الصالح في أعمالهم ووصاياهم في ضوء هذه التعليمات الإلهية والنبوية، في مثل قول سعيد بن المسيب: ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه؛ فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لعقله.(1)

وقول ابن سيرين ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم، وتكتم خيره (2).

فهل كانت سيرة العلماء والمثقفين في مختلف المجالات العملية في البيئة الإسلامية تسير على هدي هذه التوجيهات بكيفية ملزمة؟.

الظاهر أن ما حدث من الاختلاف السياسي والكلامي والمذهبي أوقع الدارسين في كثير من المحظور والشطط في استعمال سلطة الكلام والقلم، سواء في مجال ترجمة الأعلام، أو التعليق على الكتب أو الحكم على الفرق والمذاهب؛ مما دعا أئمة منصفين وهبهم الرقة في الإحساس إلى التنبيه إلى خطل هذا السلوك، والتذكير بالضوابط الشرعية التي لا يجوز الخروج عليها عند الحوار والنقد، أو الرد على الطرف الآخر.

ويتنقل لنا في مجال تراجم الأشخاص ما يقع كمن تجاوز في الحديث أو الحكم على بعض الجوانب المتعلقة بالمترجم له، سواء أكان الأمر يتعلق بلقبه الذي قد يذكر معه في ترجمته مع كراهيته لذلك: لذلك كان الشافعي رحمه الله يتحرى في الألقاب، وفي نحو قوله: حدثنا إسماعيل الذي يقال له ابن علية، لعلمه بكراهيته للانتساب لذلك.(3) أو كان مثل وقوع المترجم في نقل ما يبلغه عن المترجم له من وقوع في عرضه بمجرد ما بلغه دون تحر، معتمدا على حدسه الذي قد يكون متأثرا بهوى خفي؛ وقد حذر المؤرخين من ذلك، واتهم بسببه على شفا جرف هار؛ لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق(4).

وقد شبه من يقع في هذا بمن يذكر بين يديه شخص فيقول: دعونا منه، أو إنه عجيب أو الله يصلحه، فيظن أنه لم يغتب بشيء من ذلك مع أنه من أقبح الغيبة (5).

ويظهر أن التسرع إلى القدح في الأشخاص كان سببا في حوار طريف وقع بين قاض توقف في شهادة بعضهم، فحضر إليه الشخص المعني سرا، سائلا إياه عن السبب ، وقد احتج القاضي بأنه رآه يارض فيها كثير من القاذورات؛ فأجابه المعني على البديهة: يا مولانا، قد كنت في ضرورة غير قادحة، فما بالكم كتمتم بها؟ (6).

وقد كانت مسؤولية اللسان والقلم وخطورتهما سببا في اعتقاد الناس أن سبب تغير ذهن القاضي الشمس أبي العباس محمد بن موسى بن سنداتة، ونسيانه غالب محفوظاته حتى القرآن، إنما كان عقوبة من الله له لكثرة وقوعه في الناس(7).

ولا يستغرب هذا، فقد وقع لأبي شامة (ق 6هـ) أحد شيوخ النووي ما جعله بعد أن كان ذا مكانة بين معاصريه عظيمة، يتعرض لامتحان طريف، حيث دخل عليه رجلان جليلان في داره في صورة مستفتيين، فضرباه ضربا مبرحا حتى عيل صبره دون أن يتمكن أحد من غوثه، وقيل إن السبب في ذلك أنه كثير الوقيعة في العلماء والصلحاء وأكابر الناس والطعن عليهم، والتنقيص لهم وذكر مساوئهم، وكونه عند نفسه عظيما، فصار ساقطا من أعين كثير من الناس ممن علم منه ذلك وتكلموا فيه(8) .

> ■ زادت السنة هذه المعالم بياناً وتفصيلاً في نهي الرسول المؤمنين عن التطرف في النقد والفحش فيه

وما وقع بين ابن حزم رحمه الله وابن العربي ما هو معروف مشهور، حتى قال الذهبي رحمه الله: ولم أنقم على القاضي رحمه الله (يقصد القاضي أبا بكر العربي) إلا إقذاعه في ذم ابن حزم، واستهجانه له، وابن حزم أوسع دائرة من أبي بكر في العلوم، وأحفظ بكثير، وأصاب في أشياء وأجاد، وزلق في مضايق كغيره من الأئمة، والإنصاف عزيز(9).

ويقول الحافظ السخاوي متحدثا عن نفرة بعض الناس من الانتفاع من علم بعض الأعلام بسبب عدم مداراتهم في النقد، وكذا ما حصل من بعض الناس من نفرة وتحام عن الانتفاع بعلمهم مع جلالة قدرهم، علما وورعا وزهدا، لإطلاق لسانهم، وعدم مداراتهم، بحيث يتكلمون ويجرحون بما فيه مبالغة لابن حزم وابن تيمية، وهما ممن امتحن وأوذي، وكل واحد من الأئمة يؤخذ من كلامه ويترك، إلا رسول الله (صلع) (10).

وقد لوحظ على بعض العلماء صنيعهم أثناء الترجمة ما يتنافى مع مكانة الشخص ما اختصار لترجمته بشكل مخل بسيرته وكتبه، أو تطويل ترجمته بشكل مبالغ فيه، ميلا مع المذهب الفكري أو الجانب الشخصي.

لكل ما تقدم وأشباهه مما وقع في تاريخ البشرية ويقع باستمرار، حرص العلماء المسلمون على التنبيه إلى مسؤولية القلم واللسان في تناول الشخصيات العلمية التي هي محل نظر واقتداء حتى لا تصير نهبا، وتنقلب سيرتها العطرة خداجا يجعل الأجيال الآتية بعدهم في حيرة من الأمر.

فهذا الإمام الشافعي رحمه الله يقول للمزني وهو يسمعه يقول: فلان كذاب. قال المزني: فقال لي: يا إبراهيم اكس ألفاظك أحسنها، لا تقل كذاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء.

ونحوه أن البخاري -لمزيد ورعه- قل أن يقول كذاب أو وضاع، وأكثر ما يقول: سكتوا عنه، فيه نظر، تركوه. (11)

وقد نبه الأئمة إلى ما في التعرض للوقائع المنقصة الصادرة في شبيبة المقتدى بهم من العلماء من خطورة على القارئ، لترجمة العالم التي ينبغي أن تخلو من ذكر مثل هذه الصبوات، وقد عجب ربك من شاب ليست له صبوة؛ والاعتبار بحال المترجم له بعد أن تجاوز هذه المرحلة ونضج، وقد تقدم قول ابن المسيب: من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبهم؛ لأن من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله(12).

كما نبه الأئمة إلى استهجان ما يمكن أن يذكر في تراجم ذوي الولايات من أرباب الدولة من الضرب والسجن والإهانة ونحوها؛ إلا ما يضطر لإيراده، مع الإشعار بما يقتضي الإنكار إذا أمكن؛ فقد لا يشجع ذلك المتطرف ، فيتخذ هذه البادرة حجة يحتج بها؛ كما وقع للحجاج في فقه العرنيين، وقد سأل أنس بن مالك أن يحدثه بأشد عقوبة عاقب بها الرسول -(صلعم)- فلما بلغ ذلك الحسن قال: وددت أنه لم يحدثه (13).

لذلك ولغيره، كان المؤرخ للرجال مطالبا بالورع والتقوى قبل كل شيء؛ بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تتخلف، ومتى لم يكن ورعا ولو عرف بالعلم اشتد به البلاء، فالورع والتقوى يحجزه ويوجب له الفحص والاجتهاد، وترك المجازفة، كما ذكر الحافظ السخاوي (14).

ولا بد أن يكون المؤرخ مع ذلك عالما عدلا عارفا بحال من يترجمه، ليس بينهما من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه(15).

وقد ضرب لنا الأئمة أمثلة من الإنصاف في تراجم مخالفيهم، فهذا الحافظ ابن حجر لما ترجم للقاضي القياتي وقد كان يهاجمه وينقصه؛ ومع ذلك لم يغذ ابن حجر الإنصاف عندما وصفه بأنه: باشر بنزاهة وعفة، ولم يأذن لأحد من النواب إلا لعدد قليل، وثبت في الأحكام جدا وفي جميع أموره(16).

وهذا الحافظ الذهبي عندما ترجم للغزالي لم يعد الإنصاف في قوله: الغزالي: إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطئ... وقال: فرحم الله أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول(17).

ويقول في ترجمة أحمد بن أبي داود قؤاد المعتزلي المشهور في قضية خلق القرآن: كان على مذهب الجهمية، داعية إلى القول بخلق القرآن، وكان موصوفا بالجود والسخاء، وحسن الخلق وغزارة الأدب. وقال ردا على ابن الصلاح (ق 7هـ) في هجومه على الماوردي بسبب الاعتزال: فلا تحط يا أخي على العلماء مطلقا، ولا تبالغ في تقريظهم مطلقا(18).

وقد نصوا على أن أمورا معدودة لا تعد غيبة أو تنقيصا، بل هي مما يذكر في ميزان الشخص ولو كره ذلك، وهي نصيحة واجبة، وذلك: كأن تكون للمذكور لأية لا يقوم بها على وجهها، أو بأن لا يكون صالحا لها، أو بأن يكون فاسقا، أو متغفلا ، أو أن يكون مبتدعا من المتصوفة وغيرهم، أو متساهلا في الفتوى أو التصنيف أو الأحكام أو الشهادات أو النقل أو الوعظ، أو غير ذلك؛ فكل ذلك جائز أو واجب ذكره ليحذر ضرره. وبهذا، فالجرح لم ينقطع، لأنه من النصيحة الواجبة التي فاعلها مثاب عليها، وحجتهم التوصل بذلك إلى صون الشريعة، وأن حق الله ورسوله هو المقدم(19).

> ■ الاختلاف السياسي والكلامي والمذهبي أوقع الدارسين في كثير من المحظور والشطط استعمال سلطة الكلام والقلم

وإذا كان أمر النقد والتحامل فيه أحيانا مما لا ينبغي قد وقع بعضه في تراجم الرجال مع نوع من الحرج بسبب مسؤولية المترجم في الحكم على الشخصية العلمية من مختلف جوانبها، فإن الأمر في نقد الكتب أكثر بروزا، وأدعى إلى إطلاق الأحكام الطائرة السريعة على الكتاب بمجرده، وبقطع النظر عن صاحبه، وذلك في مثل قولهم: اجمع من هنا ومن هنا وقل هذا كتابنا؛ على سبيل المعاريض، وكذلك قول الناقد: هو كحاطب ليل، أو كقوله ليس فيه من تأليفه إلا العنوان، أو لم يصنع صاحبه شيئا، أو ليس بشيء؛ وكذلك اتهام صاحب الكتاب بالنقل المباشر من كتب شيخه أو مكتبة مشهورة أو من مكتبة خاصة، وقد اشتهر في ذلك ما يروى عن أئمة لا يتسرب الشك إلى محفوظاتهم وملكاتهم العلمية؛ كالخطيب البغدادي، والحافظ السيوطي، والحافظ السخاوي؛ ووقع قبل ذلك اتهام بعض الأئمة المتقدمين قبلهم بالسلخ والتغيير، كما وقع لأبي بكر ابن دريد -رحمه الله- عند وضع كتابه(جمهرة اللغة)، حيث اتهم بأنه من كتاب الخليل الفراهيدي، فإذا تعفف الناقد عن اتهام صاحب الكتاب بمثل ما ذكر لم ينشب أن يتهم بأنه ملأ كتابه بالأغلوطات والحشو، وأنه جمع ما فيه كل ما هب ودب، ونحو ذلك من العبارات المزرية بالعمل العلمي، والتي لا تقدم تحليلا وتقويما مفصلا، بل تكتفي بالأحكام الجاهزة القاطعة المجملة، وفي مقابل هذا الصنيع تأتي الأحكام التقريظية أحيانا مليئة بالادعاء بالتميز في التأليف، في مثل قولهم تنويها بصنيع الزمخشري في الكشاف: إن التفاسير في الدنيا بلا عدد × وليس فيها جميعا مثل الكشاف

وقول شاعرهم:

بطل النحو جميعا كله
غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع
فهما للناس شمس وقمر

ثم ذهب ما أحدثه عيسى بن عمر ونسخه كتاب سيبويه بعد ذلك: الذي قيل فيه أنه قرآن النحو؛ ولم يلبث أن استدرك عليه، وانتقد في أمور، وجل من لا يخطئ؛ وقد ادعى محمد بن مالك رحمه الله أن ألفيته تفوق ألفية ابن معط في قوله:

وتقتضي رضى بغير سخط
فائقة ألفية ابن معط

ولم يلبث رحمه الله أن ندم على هذا الحكم المطلق فاستدرك بعد ذلك فقال:

وهو بسبق حائز تفضيلا
مستوجب ثنائي الجميلا
والله يقضي بهبات وافرة
لي وله في درجات الآخرة

أما المتأخرون من النقاد للكتب بعد ذلك، فلم تخل أحكامهم من تحامل في الرد يبدو من العنوان، في نحو تسمية ردودهم: بالجيش الجرار، وبالسيف البتار، والمنكي، والمسلول، وبالكاوي ، والتنكيل، يضاف إلى ذلك كله ما يقع عند الاستشهاد والرد من التدليس الخفي، في نحو بتر النص، أو الاختصار المخل له، أو الاقتضاب منه وقطعه عن سياقه ولحاقه، أو استنطاقه بغير مراد صاحبه منه، أو نسبة الكلام والحكم إلى مؤلف الكتاب، مع أنه إنما جاء به ليرد عليه بعد ذلك: ورحم الله الشعبي عندما قال: لو أصبت تسعا وتسعين وأخطأت واحدة لأخذوا الواحدة وتركوا التسع والتسعين؛ ولعل هذا الصنع الذي نبه إليه الشعبي من أكبر الأخطاء التي تقع من النقاد، عندما يتجاهلون محاسن الكتاب وفوائده، ولا يعرجون عليها إطلاقا، أو يختزلونها في جملة أو عبارة؛ مركزين بعد ذلك على تضخيم مساوئ الكتاب وأخطاء صاحبه، مع إعطائها أحيانا من الأهمية أكثر ما تستحقه، بحيث تصير في عين القارئ كالشجرة التي تخفي الغابة كما يقال.

لذلك كان الأئمة المتصفون على بينة من هذا الأمر عندما يكتبون؛ طلبا لاستكمال عمل علمي أو تقويمه أو نقده؛ ويبدو ذلك من العنوان نفسه، في نحو إطلاقهم «الفوات» و«الاستدراك» و« التعليق» و« السرد» و«التنبيه»، وما إليها من العناوين التي لا توحي بقدح أو ذم، ولا تعطي الحكم المعجل الذي يمكن أن يفهم بادئ الأمر قبل الفحص والتفصيل والبيان، فهذا أبو عبيد البكري يبدأ كتابه (التنبيه) على أوهام أبي علي القالي في أماليه بقوله: هذا كتاب نبهت فيه على أوهام أبي علي رحمه الله في أماليه تنبيه المنصف لا المتعسف، ولا المعاند... وأبو علي رحمه الله من الحفظ وسعة العلم والنبل، ومن الثقة في الضبط والنقل بالمحل الذي لا يجهل... ولكن البشر غير معصومين من الزلل، ولا مبرئين من الوهم والخطل، والعالم من عدت هفواته، وأحصيت سقطاته.

(كفى المرء نبلا أن تعد مَعَايبُهُ) (20)، هذا وقد ضرب لنا الأئمة الأعلام أمثلة من الإنصاف في نقد الكتب، والوقوف في ذلك عند حد الاعتدال.

فهذا الإمام ابن تيمية رحمه الله يقوِّمُ كتاب (الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم رحمه الله فيقول: وكذلك أبو محمد بن حزم فيما صنفه من الملل والنحل، إنما يستحمد بموافقة السنة والحديث، مثل ما ذكره في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك بخلاف ما انفرد به في التفضيل بين الصحابة، وكذلك ما ذكره في باب الصفات، فإنه يستحمد فيه بموافقة أهل السنة والحديث، لكونه يثبت الأحاديث الصحيحة، ويعظم السلف، وأئمة الحديث، ويقول: إنه موافق له ولهم في بعض ذلك، ولكن الأشعري أعظم موافقة للإمام أحمد ومن قبله من الأئمة في القرآن الكريم والصفات، وإن كان أبو محمد ابن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره، وأعلم بالحديث، وأكثر تعظيما له ولأهله من غيره؛ لكن خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم في ذلك، فوافق هؤلاء في اللفظ وهؤلاء في المعنى، وبمثل هذا، صار يذمه من ذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له؛ كما نفى المعاني في الأمر والنهي والاشتقاق؛ كما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب، مضموما إلى ما في كلامه من الوقيعة في الأكابر... وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة ما لا يدافعه إلا مكابر... (21)

وهذا الأمر الذي تنبه إليه من تقدم من الأئمة نجد نحوه عند الحافظ الذهبي في تقويم (الإحياء)، للغزالي فيقول وأما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علما نافعا... (22) ويزيد شيخه الأمر وضوحا بالموازنة بين (الإحياء) و(قوت القلوب)، بقوله: أما كتاب قوت القلوب وكتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب، مثل: الصبر والشكر والحب والتوكل... وأبو طالب أعلم بالحديث والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد، وأجود تحقيقا، وأبعد عن البدعة، مع أن في قوت القلوب أحاديث ضعيفة موضوعة وأشياء كثيرة مردودة.

وأما ما في الإحياء من الكلام على المهلكات، مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية: ومنه ما هو مقبول: ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه.

لا تنقضي عجائبه من يوم نزوله حتى تقوم الساعة

القرآن الكريم ...وسحر البيان

القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ، ولذلك يقف العلماء عبر القرون– من يوم نزوله إلى الآن، وإلى أن تقوم الساعة يلتقطون من جواهره ويقتبسون من نور آياته. والقرآن كما هو بحر زاخر بالمعاني، مليء بالأسرار، وهذا مما شجع العلماء والباحثين على مداومة النظر فيه، لم يقل واحد منهم لقد كفاني السابقون من العلماء مؤنة البحث.

والقرآن مليء بالأسرار، عامر بالخيرات والبركات، وكل لفظة من ألفاظه درة غالية، من أي ناحية نظرت إليها أخذك بريقها، وإنما يظهر لك هذا بمقدار ما عندك من الإيمان وصدق اليقين، وحسن الإقبال على الله عز وجل ، وخير ما يعين على اقتباس نور القرآن واقتناص شوارده ومعانيه بعد التحقق من مقام العبودية لله، والتفوق في تحصل علوم القرآن.

إن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه، وتأثيره في قلوب الذين يتلونه حق تلاوته، لا يساهمه فيه كلام، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه، لم يكشف عنها اللثام، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام .

لذلك لأردنا أن نعيش مع درره الغالية من خلال هذا البحث المتواضع عن الإعجاز البياني في القرآن الكريم..

يُقصد بالإعجاز البياني الذي يقوم على النظم: ذلكم الترتيب لكلمات القرآن في جملها من جهة، واختيار هذه الكلمات من جهة أخرى، ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة، ويدركه صاحب السليقة دون شرح أو دلالة من أحد، ويدركه غير السليقي – سواء أكان عربيًا أم غير عربي – إذا فُسِّرت له معاني القرآن. وكلمات القرآن مقدّرة خير تقدير، معبرة أفصح تعبير وأصدقه، فاختيار الكلمة في موضع دون آخر، وتقديمها في موضع دون آخر، وذكرها في موضع دون آخر، كل ذلك إعجاز. والقرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، من حيث المفردات والجمل وقوانينها العامة، بل جاء كتابًا عربيًا جاريًا على مألوف العرب من هذه الناحية، ولكن المعجز أنه مع دخوله على العرب من هذا الباب الذي عهدوه، وبلغوا الشأو الأعلى فيه، قد أعجزهم بأسلوبه الفذ، ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه، لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ }[فصلت: 44].

يقول الدكتور / فضل حسن عباس: «..وعلى الرغم من أننا نؤمن أن للقرآن وجوها للإعجاز لكن أصلها الإعجاز البياني، ثم إن هذا الإعجاز البياني عام في آي القرآن جميعه، بينما أنواع الإعجاز القرآني الأخرى: التشريعي، والعلمي ليست عامة ولم ترد في كل الآيات، هذه ناحية، ثم إن الأصل في الإعجاز العلمي والتشريعي أنه إعجاز بياني؛ فمثلا: لماذا قال القرآن في سورة التكوير) إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت) وفي سورة الانفطار قال: (إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت)، فحينما تحدث عن النجوم قال (انكدرت) وحينما تحدث عن الكواكب قال (انتثرت). نحن حينما ننظر إلى هذه الناحية ننظر لها من زاويتين: البيانية أولا ثم العلمية ثانيا، نحن نعرف أن الانكدار للأجسام المضيئة، فانكدر بمعنى أن الضوء خفت، بينما الانتثار للأجسام الصلبة التي لا إضاءة فيها، مثلما يكسر كأس الزجاج فنقول: انتثرت أجزاؤه على الأرض، من هنا ندرك السر العلمي في القرآن بأن عبّر عن النجوم بالانكدار وعن الكواكب بالانتثار، لأن النجوم أجسام مضيئة والكواكب مرتبطة بالأرض. وعليه أقول : إننا يجب أن لا نهمل هذه الأنواع من الإعجاز لكن أهمها وأعمقها الإعجاز البياني...

إن القرآن الكريم ليس بشعر ولا نثر ، بل هو قرآن كريم نسيج وحده ، لذلك سلمت العرب ببلاغته وفصاحته ، ففي عصر أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وبعد انتهاء حروب الردة ، قدم وفد من بني حنيفة ، إلى المدينة المنورة ، فقال أبو بكر : أسمعونا شيئا من كتاب مسيلمة الكذاب ، فقالوا كان يقول :

[يا ضفدع بنت ضفدعين ، لحسن ما تنقين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، تصفق في الماء وتصفق في الطين ، امكثي في الأرض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين] وكان يقول: [يا أيها الجائع ، اشرب لبنا تشبع ، ولا تضرب الذي لا ينفع] ، فقال أبو بكر :

إن لله وإنا إليه راجعون ، ويحكم أي كلام هذا ، لقد استرجع أبو بكر ، إذن هناك حالة وفاة ، فمن مات ؟؟ لقد مات ذوقهم الأدبي ، وماتت فصاحتهم وبلاغتهم ، لذلك قال : « ويحكم أي كلام هذا .

عموما فإن الإعجاز البياني للقرآن الكريم ملازم له في كل وقت وحين ، منذ أن نزّل به الوحي الأمين على قلب رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هذا من جهة الإعجاز البياني .

تاريخ المنهج البياني:

وهو المنهج الذي تدور مباحثه حول بلاغة القرآن في صوره البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ووصل وفصل وما يتفرع عن ذلك من استعمال حقيقي أو استخدام مجازي أو استدراك لفظي، أو استجلاء للصورة أو تقويم للبنية، أو تحقيق في العلاقات اللفظية والمعنوية أو كشف للدلالات الجمالية والمقالية. والبحث في هذا الجانب يعد بحثا أصيلا في جوهر الإعجاز القرآني ومؤشرا دقيقا في البلاغة القرآنية.

يقول الدكتور / محمد حسين الصغير: وقد بدأ هذا الفن –في جملة من أسراره– الجاحظ (ت: 255هـ)، فخصص كثيرا من مباحثه في كتابه (نظم القرآن) إلى استيفاء جمال العبارة، واستخراج ما فيها من مجاز وتشبيه بمعانيهما الواسعة غير المحددة، إلا أن هذا العرض من قبل الجاحظ جاء مجزءا ومفرقا ولم يكن متفرغا للقرآن كله بل لبعض من آياته كما يبدو وذلك من خلال معالجاته البيانية في «نظم القرآن» والبيان والتبيين، حتى إذا برز الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) في كتابيه: «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة، فكانت الحال مختلفة، فالجرجاني عالم واسع الثقافة، مرهف الحس، متوقد الذكاء، وقد استخدم ذلك في استنباط الأصول الاستعارية والأبعاد التشبيهية، والمعالم المجازية لآيات القرآن الكريم، وأخضعها باعتبارها نماذج حية للتطبيق العلمي، وهذه النماذج تتضح بها معاني القرآن في صوره البيانية، وجوانبه الفنية، فهو أوسع بكثير من الجاحظ في هذا المضمار، إلا أن الصورة التكاملية للقرآن مفقودة في كلا الكتابين على عظم قدرهما البلاغي.

الرسول صلى الله عليه وسلم ..قدوة حسنة

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القدوة الحسنة في المعاملة الحسنة، قال أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: صحبت النبي عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته: لم فعلته؟ ولا في شيء تركته: لم تركته؟ وتعاقب هو وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ورجل آخر من الصحابة في سفر على بعير فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشي فيعزمان عليه أن لا يمشي فيأبى ويقول: ما أنتما بأقدر مني على مشي، وما أنا بأغنى منكما عن أجر.